ثورة الجماهير الشعبية العربية في ثورة العراق

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

يقدم الواقع العربي الدليل تلو الدليل على حيوية القوى التي تحركه ، وتصميمها على الاغتناء والتكامل والنصر . وأمام تشكيك المشككين ، وتساؤلات المتسائلين، يجأر الوجود العربي حيا قويا مريدا . وأمام السموم التي يحاول أن يزرعها ضعاف النفوس او الغرباء عن كيان الامة أو أعداؤها ، والتي تريد ان تتنكر لصفحة الحياة العربية فلا ترى فيها وجهها الحقيقي ولا تدرك معناها الاصيل وتفرض عليها من الاوصاف المقتسرة والتحليلات المصطنعة ما ليس منها في قليل أو كثير ، تنهض الحقيقة العربية، وتنهض الادلة الموضوعية المشخصة ، لتقول بلسان لا لبس فيه ان في الوطن العربي اتجاهات أصيلة وطاقات روحية واعية ناضجة ، تسير كالسيل في طريق تجميع كل شيء من أجل تحقيق الحضارة العربية الموحدة والانبعاث العربي الكبير .

ترين على هذا الوجود بين الفينة والفينة سحب وظلال سوداء وتغشاه الغواشي ، شأن كل وجود يتشقق ليقوى ، ويتفجر لترسخ أوتاده . ويخضع هذا الوجود لجزر بعد المد ولاعصار بعد الاشراق ، يخرج منهما بمزيد من مد وفضل من نور ، فاذا الحاقدون الشامتون يرون في العرض جوهرا وفي الهامش أصلا وفي عثرات الطريق عجزا وقعودا . غير ان الواقع ، الواقع الحي النابض، ما يلبث حتى يصفع التخرصات ، ويهزأ بعشاق المآسي وغربان الجنائز ، فيشرئب من قلب الموج الهادر شامخا ويطلع من لج الازمة ظافرا .

هكذا يحاول القاعدون العاجزون من أبناء الامة العربية او الغريبون عن روحها وتيارها ان ينصبوا عجزهم مذهبا ويجعلوا من غربتهم نظرية وفلسفة ، فيضفوا على الواقع العربي ما ليس فيه وما هو قائم في خور نفوسهم وهجانة تفكيرهم . وهكذا يحاول الحاقدون والاعداء ان يصفوا الحياة العربية ، كلما أصابها ضر أو عراها غم ، بما يريدون ان تكون عليه وبما يريدون لها من ضياع وانهيار .

ثم تأتي الكلمة ، الكلمة الصادقة الحاسمة ، كلمة الحياة العربية التي استمرت منذ سنوات طوال تصارع الادواء والمفاسد والمكائد كلها وتشق من خلالها جميعها طريق القوة وسبيل المصير العربي.

بالامس ، بعد قرن ونيف من العسف والتشويه يقوم بلد عربي كاد الاذلال يضنيه وكاد الاستعمار يبيد قواه، فيشرئب كالنمر ، من خلال القيود والوهن ، وينتفض من خلال المرض والاعياء ، ويبني في سنوات معدودات ، ثورة شعب غدت علما على ثورات الشعوب ، ونضال امة اليه ينتسب النضال ، ويحقق ما بدا حلما لاعدائه وما بدا وهما وخيالا للمشككين الخائرين ، **يحقق الجزائر العربية** المستقلة ويجعل منها صرحا للثورة العربية الشاملة .

وبالامس القريب ، في أقاصي الجزيرة العربية ، في بلد القرون الوسطى ، وفي قلب حكم الجهالة والوحشية والتخلف ، **تشب اليمن وتمسح كرى السنين وتمزق عفن الاجيال** ، لتقيم في ذلك المجتمع الذي ما عرف طعم النور ولا ذاق مرأى الانسانية نواة نامية قوية لحرية الانسان العربي ، ولتطلق قوى الجماهير الغفيرة التي ترزح تحت اثقال العبودية ، مفجرة لديها طاقات الابداع الحقة من اجل الغد العربي الناهض .

وفيما هو أقرب من الامس ، فيما لا يزال أمام كل عين وعبر كل جارحة ، **يأتي العراق فيمحو سنوات الاضطهاد والشعوبية بكل قسوتها وثقلها ، ويخرج صافيا عربيا أصيلا ، يقهقه حتى الاعماق هازئا من كل من تسول له نفسه التنكر لخط التاريخ العربي ومعاكسة الركب الزاحف ، يأتي العراق المنظم الثوري مبينا ان لا مساومة على مصير الامة وان لا هوادة في حكم التاريخ على أعدائها.**

ويبلغ هذا العراق الثوري مرحلة جديدة في النضال العربي ، ويعبر عن طاقة مستحدثة من طاقات هذا النضال. انها طاقة العمل المنظم ، العمل الشعبي ، العمل الجماعي. انها طاقة الحركة التي تنبثق وسط الجماهير لتكون وهذه الجماهير شيئا واحدا وروحا واحدة . انها الثورة التي لا ترضى ان تكون مجرد معبر عن ارادة الجماهير ، بل تريد ان تكون هي الجماهير . انها الثورة التي تتصل اتصالا مباشرا حيا بمصلحة الجماهير الكبرى من ابناء الوطن وبأهدافها وصبوات نضالها ، لتتخذ من هذا كله شعار عملها واداة نضالها . انها وسط هذه الجماهير وفي قلبها، وليست على السطح منها او فوقها .

وبفضل هذا الموقف الجديد ، يدخل النضال العربي مرحلة عامرة بالعطاء غنية بالامكانيات . لم يعد هذا النضال شرارة تطلق الشعلة ليتلقفها بعد ذلك من يتلقفها، وليستضيء بها من يريد ان يستضيء ، وليستغل نورها احيانا من يحلو له الاستغلال . بل غدا عملا مكتمل البنية هو المحرض وهو المنفذ ، هو المحرك وهو المتحرك .

لقد شهد الوطن العربي في فترات كثيرة مواقف نضالية نستطيع ان نسميها مجهضة ، تعطي نفسها مهمة شق الطريق واثارة الثورة ، ثم تقف عند هذا الحد تاركة للظروف والمناسبات مهمة انجازها ، بل مخلية ذلك ، بضرب من التفكير السحري ، لمعجزات لا بد ان تقع . **أما اليوم**

فنستطيع ان نقول ان النضال العربي دخل مرحلة النضال العلمي المنهجي المنظم ، الذي يابى ان يدع الامور للصدف والمناسبات ، والذي يعتمد على قوى منظمة واعية تنجز المهمة وتتولى تحقيق الهدف . وعند ذلك يأخذ النضال كامل معناه ويصل الى مستقره الحقيقي ما دام الشعب هو رائده وهو اداته ، وما دام من اجل الشعب وبالشعب.

ان ابرز مميزات الثورة العراقية الجديدة هذا الاساس الشعبي الذي تستند اليه ، والذي هو غذاؤها الدائم وموقدها الخصيب . **انها ثورة شعب ،** بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، يلتئم فيها عمل الطليعة بعمل الجماهير وتوجه فيها ارادة الجماهير نضال الطليعة ، ويلتقي عندها المدني بالعسكري ، فيحمل المدني السلاح ويخوض المعركة جنبا الى جنب مع العسكري ، ويلتقي هذا وذاك في توجيه سياسة الحكم ، على قدم المساواة وضمن جو من المشاركة والتفاعل في الرأي . ويستمد الجميع معاييرهم ومقاييسهم من الاصول الشعبية التي يرتبطون بها ومن مقاييس النضال الجماهيري الشعبي الشامل .

وعندما تكون الثورة شعبية ، وعندما تكون جذورها عميقة الاتصال بحياة الجماهير واراداتهم وحاجاتهم، بل عندما تكون هي الجماهير ، يغدو العمل الجماعي نتيجة طبيعية ، وتغدو الارادة الديمقراطية المشتركة ، هي الارادة الطبيعية . والثورة التي قامت على سواعد الشعب، متمثلة بقواه المنظمة وما وراءها من ارادة والتفاف شعبي، لا بد ان يظل هذا الشعب اداة تطويرها ونمائها ، وان تكون ارادته الجماعية هي الموجهة الحاكمة . وعند ذلك تأخذ المشكلة التقليدية الازلية ، نعني مشكلة تحقيق ديمقراطية شعبية لا تنسى مطالب الديمقراطية السياسية والاجتماعية معا ، طريقها الى الحل ، ما دامت الثورة في اصلها وانطلاقتها ثورة شعبية قامت على اساس ارادة الجماهير الحرة في حياة اجتماعية اشتراكية حرة .

وهكذا تغدو المؤسسات الديمقراطية ، من منظمات نقابية وطلابية الى تعاونيات وجمعيات فلاحية ، الى منظمات حزبية ، هي الاساس الذي تنعقد حوله مثل هذه الديمقراطية الشعبية ونقطة الانطلاق الفعالة المجدية نحو الديمقراطية التي يتحقق فيها التوازن والتفاعل بين الحرية السياسية والتحرير الاجتماعي والاقتصادي. وبذلك يقتحم المجتمع العربي تجربة جديدة حقة ، فيها جهد ايجابي من اجل الخروج من بين قرني الاحراج في مسألة الديمقراطية : أي بين الديمقراطية البورجوازية الليبرالية وبين الديمقراطية الاجتماعية الدكتاتورية . ولا نقول ان مثل هذه المهمة ، مهمة الجمع الحي بين مطالب الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية دون ان تنقلب اولاهما الى ديمقراطية بورجوازية ودون ان تغدو الثانية ديكتاتورية، مهمة سهلة ميسورة . غير اننا نجد فيها المشكلة الجديرة بأن تنصب عليها الجهود ، لانها قمينة وحدها بان تخرج الوضع العربي من كثير من الصعوبات التي يواجهها منذ سنوات والتي سيواجهها دوما ان لم يقم مثل هذا الجهد الذي غدونا نجد نظائر له في كثير من بلدان العالم ، والذي هو أمل الانسانية أنى كانت .

وطبيعي أن يأخذ هذا الجمع بين روح الديمقراطية السياسية وروح الديمقراطية الاجتماعية شكلا يأتلف مع ظروف الواقع ومع تطور الاحداث ، وطبيعي ان لا تكون له صيغة مطلقة محددة المعالم سلفا . غير ان المهام فيه هو الارادة الجادة لبلوغه ، والانطلاق من موقف الجمع هذا، على ما فيه من عسر ، بدلا من التماس الحلول السهلة الحادة . التماس احد الطرفين المسرفين للديمقراطية . المهام فيه ان تكون الظروف والصعوبات العملية فرصة لتذليل أكبر قدر منها من أجل الانطلاق في الطريق السليم، لا حجة ودريعة لركوب مركب التطرف الديكتاتوري او التناقض البورجوازي.

وتيسر هذه المهمة في العراق ، كما سبق ان قلنا، نقطة الانطلاق السليمة التي انطلقت منها الثورة . نعني نقطة الانطلاق الشعبية التي ائتلفت فيها ارادة الجماهير والتي عبرت عن اندماج بديء بين التنظيم الديمقراطي الحر وبين الارادة الثورية الجادة في طريق التحرير الاجتماعي والاقتصادي.

على أن الذي يضع هذه الثورة الشعبية في مكانها الصحيح فيما يتصل بمسألة الديمقراطية ارتباطها الاصيل، لا بالجماهير الشعبية والمنظمات الشعبية في العراق وحده ، **بل بالجماهير الشعبية والمنظمات والحركات الثورية في الوطن العربي كله .** فالارادة الشعبية هي في حد ذاتها وأنى وجدت ، في العراق أو غيره من البلدان العربية ، **ارادة عربية مشتركة موحدة ، تعبر عن عمق الاتصال بين الثورة الاجتماعية التي تريدها الجماهير وبين النضال العربي الموحد من اجل اهداف هذه الثورة ، التي هي اهداف قومية لا اهداف محلية واقليمية فحسب.**

وفي الظروف التي تجتازها البلاد العربية ، وفي التكوين الاصلي لبنيتها ، لا مجال الى الحديث عن ثورة اشتراكية اجتماعية ناجعة كاملة ضمن اطار الانفصال والتجزئة. ومن مقومات الاشتراكية في البلدان العربية ان تعتمد على ارادة الجماهير العربية الموحدة ضد ارادة أعدائها أولا. وان تعتمد ثانيا على القوة الكبرى الاجتماعية والاقتصادية والتحررية الثاوية في تكامل أجزاء الامة العربية وتفاعل ثرواتها وامكانياتها . والعمل للكيان العربي الموحد، أيا كان التنظيم القانوني والدستوري لهذا الكيان ، يبدو يوما بعد يوم الشرط الاساسي لتحقيق نظام اجتماعي اشتراكي ناجح ، ولحماية هذا النظام من اعدائه في داخل البلاد وخارجها . ويبدو ذلك بدهيا اكثر ، في الظروف التي نرى فيها الدول المتباعدة فيما بينها تلجأ الى وحدات اقتصادية وغير اقتصادية من اجل حماية انتاجها وزيادة طاقاتها الاقتصادية . أو نحن في حاجة في هذا المجال الى ان نذكر بالنظريات الاقتصادية التي تقول ان كل تفاعل بين نظامين اقتصاديين ، لا سيما عندما يكونان في دولتين متقاربتين ، يؤدي الى ارتفاع في الانتاج والثروة في مصلحة كلا البلدين معا ؟ من هنا ندرك عابرين سقم الاقوال التي تحاول ان تثير المصالح الاقتصادية الخاصة بكل دولة عربية جاعلة من كل وحدة او اتحاد زوالا لهذه المصالح أو استغلالا تقوم به الدولة الكبيرة او الفقيرة للدولة الصغيرة او الغنية . ولنقل مرة أخرى ان الوحدة او الاتحاد بين البلدان العربية تفاعل منتج وليس ضمما عدديا ، ومن شأن التفاعل ان يولد طاقة وثروة جديدة تفوق ما ينتج عن مجرد تجمع الاجزاء ، وينقلب خصبها لفائدة جميع الاجزاء.

وهكذا تستبين لنا المعاني القوية الثاوية في ذلك الاتجاه الذي عبرت عنه تصريحات المسؤولين في العراق، نعني الاتجاه نحو الانفتاح على النضال العربي المشترك، ونحو وحدة النضال الشعبي وتأييد امال الشعب العربي في جميع اقطاره ، ونحو التضامن مع الحكومات العربية

المتحررة . انه يعني الالتقاء الحميم بين ارادة الجماهير الشعبية في العراق وارادة الجماهير لشعبية في كل بلد عربي، والوحدة الكاملة بين اهداف هذه الجماهير، وضرورة تنظيم نضالها الموحد في سبيل هذه الاهداف . **ويزيد في ضرورات هذا الانفتاح على النضال المشترك ان ثورات شعبية تحررية قامت في العديد من اجزاء الوطن العربي ، وان هذه الثورات ترجمة لمطالب شعبية واحدة ولارادة جماهيرية واحدة ، وتعبير عن تجربة نضالية مشتركة ، ولذا فمن الطبيعي لها ان تلتقي وان تتفاعل مع سائر الحركات والمنظمات التحررية في البلدان العربية** من اجل وضع نتائج التجربة التي قام بها كل بلد في خدمة سائر التجارب التحررية في الوطن العربي ، ومن اجل الوصول الى توحيد الدروس التي تقدمها هذه التجارب والخروج منها بنتائج واقعية تأتلف مع المطالب والاهداف المشتركة للامة العربية جمعاء من جهة ومع الاوضاع الخاصة بكل بلد عربي من جهة ثانية .

وهذا الاساس الشعبي للديمقراطية ، الذي يجعل منها ديمقراطية شعبية تؤمن بالحرية من اجل التحرر الاجتماعي والاقتصادي وبالتحرر من اجل الحرية ، والذي يجعل منها بالتالي ديمقراطية اشتراكية وأداة من ادوات النضال العربي المشترك من اجل الكيان العربي الموحد الذي تأخذ فيه الحياة الاشتراكية الديمقراطية أكمل صورها ، يحدد من تلقاء ذاته حدود الديمقراطية وقيودها: فالديمقراطية العربية ما دامت ديمقراطية شعبية اشتراكية عربية ، لا بد ان تكون حدودها حدود العمل لهذه الاهداف، ولا بد ان تنفي كل حرية لاعداء الاتجاه القومي العربي او لاعداء الاشتراكية او لاعداء الشعب . والحرية السليمة بهذا المعنى ، التي تسقي من هذا الاساس الشعبي ، هي الحرية ضمن اطار الاهداف القومية الكبرى ، وعلى رأسها هدف الوحدة وهدف الاشتراكية . وفي قلب هذا الاطار يمكن ان تأخذ الحرية منطلقها ويمكن ان يقوم التعدد والتنوع والخلاف في الاجتهاد وفي الرأي على أوسع نطاق . فمثل هذا التعدد والتنوع شرط من شروط التجدد والتقدم وتجاوز الذات ، وأداة من أدوات الحوار المنتج الخصيب .

* * *

وبعد ، هنالك أشياء وأشياء تثيرها ثورة العراق في الاذهان ، وهنالك مسائل ومسائل تطرحها على الاقلام . غير انها جميعها تتحلق في نظرنا حول هذه البذرة الخصيب التي انطلقت منها ثورة العراق، حين انطلقت انطلاقا شعبيا جماعيا تثوي فيه ارادة الجماهير الديمقراطية الوحدوية . **ولهذا يتطلع اليها العرب في كل مكان ، ويرون فيها قوة جبارة لا بد ان تحمل وتتمم . فمقياس الثورية في أي ثورة عربية ان تعبر عن ارادة الجماهير وان تقوم على يد الجماهير .** اذ ان هذه الارادة وحدها هي الارادة الاشتراكية العميقة الحية التي لا تقبل الزيف ، وهي لارادة العربية التي تكون الوحدة اساس وجودها وازدهارها، وهي الارادة الديمقراطية التي تعبر بعمق عن ارتباط الحرية بالتحرر الاجتماعي ، لانها ارادة الكثرة الغالبة من المواطنين وارادة القوى الاساسية في بناء أي مجتمع. ان طبيعة الصراع القائم اليوم في البلدان لعربية يرتد في النهاية الى صراع بين مطالب الكثرة الغالبة من الجماهير الشعبية في الوطن العربي التي ترتبط بها حياة الامة وتقدمها والتي يرتبط وجودها المتفتح الفعال بقيام الاشتراكية والوحدة والديمقراطية ، وبين مصالح القلة من المنتفعين بأوضاع التجزئة والاستغلال الاقتصادي ودكتاتورية رأس المال والفساد الاجتماعي ، نعني طبقة الفئات الحاكمة الرجعية ، واصحاب رؤوس الاموال الكبيرة الذين ترتبط مصالحهم بمصالح التجزئة وبمصالح الاستعمار، والمستغلين للتخلف الاجتماعي والصراع الطبقي او العنصري او الطائفي او الديني او غيره من امائر لفساد .

وهذا يعني شيئا واحدا وهو ان سبيل الامة العربية هو سبيل الشعب ، بقواه المنظمة وبنضاله الموحد في جميع اجزاء الوطن العربي. ومن هنا بدأت ثورة العراق، وعنده ستلتقي سائر الحركات الثورية التحررية في البلدان العربية في زحف كبير هادر نحو اهداف الشعب العربي .

عبد الله عبد الدائم

الاشتراكية والأدب

ومقالات أخرى

تأليف

الدكتور لويس عوض

دراسات معمقة عن النزعة الاشتراكية
كما تبدو في آثار اكبر الكتاب العالميين

صدر حديثا عن دار الآداب

الثمن ٣٥٠ ق.ل